طروحات مستكتبة, ندوة عمارة المساجد، م ١٠ أ، ص ص ٣٧-٥٠، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م)

عمارة المساجد بين المشرق والمغرب

عبد الهادي التازي

أكاديمية المملكة المغربية, المجامع العربية

المملكة المغربية

ملخص البحث: يعتبر للمسجد في تاريخ الإسلام و على مدى الحقب حضوراً في كل فترة من فترات ذلك التاريخ، في كل جهة من جهاته، في كل حركة من حركاته، سواء أكانت تلك الحركة تقصد إلى حفظ دين أو تحقيق دُنيا.

إذ ليس المسجد مكاناً للعبادة فقط، ولكنه مكان يُصنع فيه التاريخ المتجدد لأمة الإسلام، تاريخها الحضاري، تاريخها الفكري، تاريخها السياسي، ولهذا فإن الحديث عن المسجد ظل مشغلة لكل الذين يتوقون لمعرفة الإسلام، ومن هنا وجدنا أن المسجد مُنذ أن وضع رسول الله ﷺ أول حجرة لبنائه في المدينة المنورة، ظل محل تنافس بالنسبة لسائر المسلمين يتبارون في بنائه، في المدن والقرى وفي الجبال والسهول، كما يتسابقون على رصد المبالغ السخية لضمان أدائه لوظيفته، ويجتهدون في تأثيثه بما يحقق الغاية المرجوة منه، اعتبروه الشعار الذي يُعبر عن هويتهم، واعتبروه اللسان الناطق الذي يُترجم عن كيانهم، وبالتالي الملاذ الأول والأخير لهم في السراء والضراء.

ومن خلال رصد الأحداث التاريخية الكبرى التي شهدها العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها، وجدنا أن ملوك المسلمين وقادتهم وجدوا في تشييد المساجد وسيلة من وسائل الشكر لله تعالى على ما أنعم عليهم من سوابغ أفضاله، ما ظهر منها وما بطن.

ولقد كتب الناس بكل لسان عن المسجد، كلٌّ سلط اهتمامه على ما يُعنيه من تلك الاهتمامات، وكل بسط القول فيما يتصل بالمواضيع المتصلة بالمسجد، حتى لخص الناس عشرات المؤلفات لمساجد الإسلام الكبرى والصغرى في عدد من الممالك والأقاليم انطلاقاً من أن التاريخ لتلك المساجد يعني التاريخ الحضاري والفكري والسياسي لتلك الممالك والأقاليم، الأمر الذي كان يؤكد – لذاته – أن المسجد هو فوق أي معلمة قائمة، وهو القلب النابض الذي يُعطي كشفاً دقيقاً عما يُخالج قلوب الذين شيدوه من إيمان صادق بالله وثقة كبرى فيما دعت إليه رسالة السماء.

ماذا عن هذه المؤسسة التي نسميها "المسجد"؟

بادئ ذي بدء ينبغي أن نعرف أن "المسجد" يعني في الاصطلاح اللغوي، اسم مكان وضع الإنسان لجبهته على الأرض تعبيراً عن الخضوع لله.

ومن الفائدة أن نجد أن كلمة "المسجد" هي نفسها التعبير المستعمل في لغات أوروبا الغربية: الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية، وكلها مأخوذة من اللفظ العربي بواسطة الكلمة الإسبانية: (MEZQUITA).

وعندما نحاول أن نتحدث عن المسجد في المأثور الإسلامي نجد أنفسنا مشدودين إلى الإشارة للمساجد الثلاثة: (المسجد الحرام) بمكة المكرمة، (المسجد الأقصى) بالقدس الشريف وكلاهما ورد ذكره في القرآن الكريم، والثالث (مسجد الرسول ﷺ) بالمدينة المنورة. وهذه المساجد الثلاثة جميعها هي التي ورد ذكرها في الحديث الشريف على أنها تستحق أن "تُشد إليها الرحال".

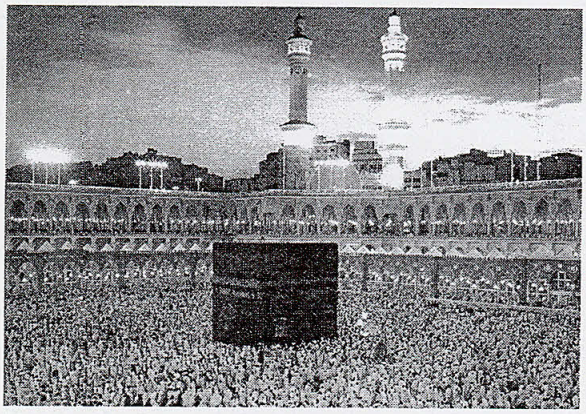

المسجد الحرام، مكة المكرمة.

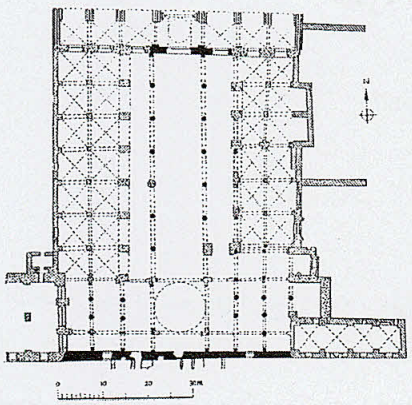

المسجد الأقصى, القدس.

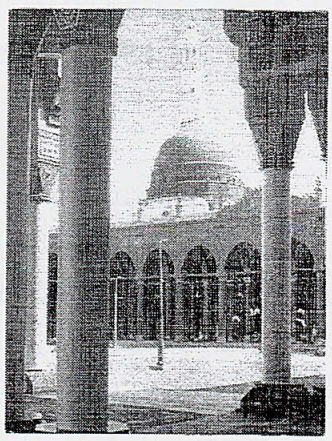

المسجد النبوي، المدينة المنورة.

لقد حفل تاريخ هذه المساجد العتيقة الثلاثة بالعديد من المعلومات التي تؤكد عن تعلق المسلمين بمقدساتهم، وعن حرصهم على تطورها ونموها وازدهارها والتعبير - من خلالها - عن أن الإسلام جاء ليبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد ظل سائر الخلفاء والملوك يعملون على خدمة تلك المساجد الثلاثة بكل ما أُتوه من إمكانيات، بل إنهم لم يترددوا أحيانا في الاستنجاد بالخبرة الأجنبية في سبيل أن يقوموا بعمل أحسن وخدمة أتقن.

ومن المهم أن نذكر هنا بما ورد في (الذهب المسبوك) لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، من أن الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان عندما قرر تعمير مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة التي كانت تحت ولاية عمر بن عبد العزيز، بعث إلى هذا الوالي في ربيع الأول من السنة الثامنة والثمانين هجرية، (فبراير، مارس ٧٠٧م) يأمره بإدخال حِجر

أزواج النبي صلى ﷺ في المسجد، كما يأمره أن يشتري ما في جوار المسجد حتى يكون مأتى ذراع في مثلها، وأن يقدم القبلة ... الخ . فقوَّم عمر بن عبد العزيز الأملاك قيمة عدل وأعطى للناس أثمانها وهدم بيوت أزواج النبي ﷺ وبنى المسجد وأثثه الفَعَلة من الشام ...

ليس المهم فقط هذه "المعلومة"، ولكن المهم أن نعرف أن الخليفة الوليد بعث - بهذه المناسبة - بسفارة خاصة إلى ملك الروم (بيزنطة) تخبره بما عزم عليه الخليفة، وهنا وجدنا أن الإمبراطور البيزنطي يبعث إلى الخليفة بمائة ألف مثقال ذهباً ومائة عامل وأربعين حِملاً من الفسيفساء، فأرسل الوليد ذلك إلى والي المدينة عمر بن عبد العزيز، فحضر عمر هذا - ومعه الناس - فوضعوا أساس المسجد وابتدءوا بعمارته إلى آخر الخبر الهام الذي له أكثر من دلالة. وقد شَهِد العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين عدداً كبيراً من المساجد الأُخرى، غير الثلاث، التي أشرنا إليها ... وخاصة بعد أن انتشر الإسلام شرقاً وغرباً، فلقد كانت الدولة تقوم في كل جهة وصلت إليها، بتشييد مسجد يُجمع عليه المسلمين حتى يتم الاتصال بين الدولة وبين الجمهور على نحو ما تم في تلك المدن الثلاث نفسها، وعلى نحو ما رأيناه في جهات أخرى ... ولا نستثني من هذا، العشرات من المساجد التي أنشأتها بعض العشائر والقبائل أو قامت ببنائها بعض الفرق الإسلامية.

أصل المساجد التاريخية

لا ننسى أن هناك عدداً من المساجد التي كانت في أصلها كنائس، ولكنها تحولت بعد الفتح الإسلامي إلى مساجد كُبرى على ما نقرأه في وثائق التاريخ الدولي للإسلام المتعلقة بالوليد بن عبد الملك وملك الروم، مثلاً عندما هدم الوليد كنيسة دمشق (SAINT-JEAN) وحولها إلى ما أصبح يعرف في التاريخ باسم المسجد الأموي: وقد كتب ملك الروم إلى الوليد يقول: " إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كان ما فعلته صواباً فقد أخطأ، وإن كان خطأ فما عُذرك؟!"

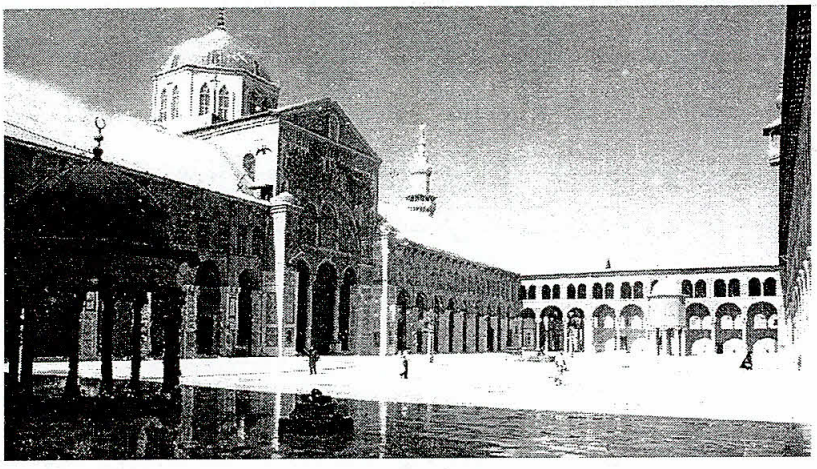

المسجد الأموي، دمشق.

ولا بد أن نذكر هنا أن قضية الكنائس المحولة إلى مساجد لها موضوع خاص تناولته المصادر الفقهية التي أعطت رأيها في كل الحالات المطروحة وبينت موقف الإسلام الصحيح من أمر حرية الأديان ... وهنا نرى من المناسب أن نشير إلى ما نسميه "حرب المساجد والكنائس" حيث نلاحظ أن المسيحيين كانوا يشتبكون أحياناً مع جيرانهم المسلمين، ويحدث أن ينتصر أولئك على هؤلاء، وهنا تصبح المساجد كنائس، وعندما كان المسلمون ينتصرون في مواجهتهم مع المسيحيين يعمدون في صدر ما يعمدون إليه إلى جعل الكنائس مساجد ... ولا بد أن نقف قليلاً على لقطتين اثنتين من هذا التاريخ بالأمس..

نحن نعرف مسجد قرطبة، تلك التحفة الفنية الحضارية الرائعة، فعندما استولى عليه المسيحيون قام بعض المتطرفة منهم فشيد كنيسة داخل هذا المسجد العظيم تعبيراً عن النصر الذي أحرزوا عليه ... وبالمقابل نجد أن بعض المسلمين جواباً على هذا يقومون باقتلاع النواقيس والأجراس من أعلى الصوامع ويحملونها على ظهور المطايا إلى مدينة فاس ويعلقونها كثريات في جامع القرويين بعد أن يدخلوا عليها بعض التغييرات والتحسينات. !

لقد عانى عالم الإسلام وعالم المسيحية من "حروب" المعابد هذه في تلك العصور التي أعقبتها - لحسن الحظ - أجيال أخذت تنظر إلى تلك المبادرات على أنها متجاوزة...

وهناك نوع من المساجد قام على عزم صادق من أصحابه يبتغون به مرضاة الله على نحو ما نراه في مسجد القرويين بفاس الذي كان من تأسيس سيدة فُضلى: كانت هي فاطمة أُم البنين "فكأنما نبهت به عزائم الملوك من بعدها" على حد تعبير ابن خلدون.! نحن لا نعرف عن فاطمة الفهرية أية معلومة سوى أنها قامت ببناء هذا الجامع، وقد دخلت التاريخ بسبب بنائها لذلك المسجد العظيم الذي أصبح جامعة إسلامية يرجع لها الفضل الأكبر في حفاظ المغرب على هويته...

يضاف إلى كل هذا نوع من المساجد التي يبنى محرابها ومنبرها بظاهر المدينة وتحمل في الاصطلاح اسم (المصلى) فيكون مسجداً عند صلاة عيدي الفطر والأضحى وعند الصلاة التي تقتضيها بعض الظواهر الطبيعية من خسوف وكسوف وانحباس مطر.

ويكفي أن نرجع بذاكرتنا إلى ما ينتشر شرقاً وغرباً من هذه المساجد لنقف على لائحة طويلة وعريضة لها بظاهر المدن الكبرى. وقد سهل علينا أمر إعداد تلك اللوائح بعض الرحالة المسلمين من اللذين ولعوا بسرد المساجد التي مروا بها وهم يذرعون مناكب الأرض، وأذكر في صدر هؤلاء الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة الذي ذكر وحده العشرات من تلك المساجد التي وقف عليها أثناء القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي) ... لكن الذي أُريد أن أُلفت الانتباه إليه في هذا العرض هو ذكر بعض الخصوصيات التي تنفرد بها هذه "المؤسسة" عن غيرها من المؤسسات الأخرى ...

خصائص المسجد

من أبرز الخصوصيات التي يتمتع بها المسجد، صفة القداسة التي يُضفيها الإسلام على المسجد، ويكفي أنه يحمل في نفس الوقت اسم "بيتُ الله". وإذا تمعنّا في معنى نسبة البيت إلى الله، أدركنا إذن الدرجة العليا للقداسة التي يتمتع

بها هذا المكان. ومن هنا حرص المسلمون، طول الأحقاب، على احترام هذه البناية التي تعتبر من "حرمات الله"، فهي إذن مكان لصلة الإنسان بربه، مكان للعبادة، مكان لالتقاء المسلمين على مدى اليوم ومدى الأسبوع، ونحن نعرف جيداً عن مركز صلاة الجمعة في الإسلام والأهمية الكبرى التي أولاها الإسلام لذلك اللقاء الأسبوعي الذي يجتمع فيه المسلمون لسماع خطبة أمير المؤمنين، إن لم يكن هو نفسه، فالذي ينيبه عنه من قاض وإمام ...
ونعتقد أن في صدر ما يندرج في الاهتمام بالمسجد من طرف الدولة هو أنها، أي الدولة، ما انفكت تؤمن بأن مصيرها الروحي والمادي مرتبط بهذا المكان ...

أنشطة المسجد

المسجد كمركز للدراسة

إن كل الذين لهم صلة بدراسة تاريخ المسجد ليعلمون أن العادة التي جرى عليها الإسلام منذ أيامه الأولى أن يُتخذ من المسجد الذي تُقام فيه الصلوات مركزاً للتعليم والتثقيف. ففي صحيح الإمام البخاري عن أبي واقد الليثي، قال: "بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فوقفا على مجلسه فرأى أحدهما فرجة في الحلقة فجلس وجلس الآخر خلفهم ..."
هكذا نستطيع القول بأن مسجد المدينة المنورة كان أول معهد للتعليم في عالم الإسلام تبعه المسجد الحرام بمكة ثم مسجد البصرة والكوفة والفسطاط، ثم جامع القيروان وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين بفاس والجامع الأزهر بمصر ... وكم من عالم جليل القدر عظيم الشأن سمعنا أنه تخرج عن جامع كذا، وأنه درس على فلان بمسجد كذا ... وأنه تلقى إجازته في الفقه أو الحديث عن شيخه الذي كان يدرس في مسجد كذا ... بحيث أصبح المسجد مرجعا من مراجع كبار الشخصيات وسندا قويا يذكر في التزكيات، أو "سلطة" من السلطات على حد التعبير الحديث.!
وقد عرفت المساجد وخاصة الكبرى منها عددا من الكراسي العلمية المتناثرة هنا وهناك: في هذه الكراسي ما يستعمله المورقين، أي الذين عهد إليهم بتلاوة كتب السيرة النبوية أو ما أشبهه، يتلونها على المؤمنين قبيل أو بعيد أدائهم لصلواتهم توعية للناس بتاريخ قادتهم بالأمس ...
وإلى جانب ذلك نؤكد على وجود طائفة من الكراسي العلمية، يختلف عددها من مسجد إلى آخر، وكلها تكون منابر يتربع عليها العلماء والأساتذة ليلقنوا طلبتهم مختلف العلوم والفنون، وقد بلغ عددها في بعض المساجد إلى العشرين كرسيا معروفة بمكانتها ومعروفة بأشياخها، ومعروفة بموضوع تخصصاتها ...

المسجد كمعتكف

لا ننسى أن نذكر من تلك الأنشطة ما كان يعرف في المراجع الإسلامية باسم الاعتكاف، أعني ملازمة المسجد لوقت معين طلبا لتصفية الروح والانقطاع عن الخلق إلى الله ... بالتلاوة والتأمل والدعاء ...

المسجد كمركز للدولة

كان المسجد مؤسسة تابعة للدولة، أي أنه مركز سياسي، تعلن فيه الاختيارات التي يجتمع عليها الرأي، وعلى منابرها تتلى المراسيم الملكية، ومن أعلاها تعلن القرارات الخطيرة المتعلقة بمصير الإسلام والمسلمين، ومن ثمة كانت للمسجد صلة قوية بأمير البلاد لا يصدر منه، ولا يقع فيه إلا ما يرى سيد البلاد أن فيه خيرا للعباد. وإن ذكر اسم العاهل على منبر المسجد كل يوم جمعة والدعاء له بالتوفيق يدل وحده على هذه الصلة القوية التي تربط المسجد بالحاكم والحاكم بالمسجد ... ومن هنا لا نستغرب حديث المؤرخين القدامى عن أن المسجد كان مجلسا من المجالس التي يتداول فيها القضايا السياسية الكبرى التي يرى الإمام الأعلى عرضها على أنظار الجماعة الإسلامية للاستنارة برأيها حول الموضوع ...

المسجد كمركز للقضاء

ومن هنا أيضا لا نستغرب حديث المؤرخين القدامى عن أن المساجد كانت بمثابة محاكم لتثبيت الحقوق والواجبات ... وكم من أحكام صدرت في أساطين تلك المساجد، فكان لها دوي عبر الأحقاب فيما سنه الفقهاء من قوانين وما أصدروه من فتاوي.

وقد فتحنا أعيننا على محاكم للقضاء كانت أحيانا تلتصق بالمسجد، ومعنى هذا أن العدالة كانت ترتبط بالمسجد وأن معالم المسجد هي الطريق لبسط الشريعة ونشرها بين الناس.

ومن هنا كان المسجد أيضا مقصدا لأداء اليمين في حق من الحقوق ... لقد كان اليمين بالمسجد كافيا لتبرئة ساحة المتهمين وإبراء ذمة المتابعين، ولكأنما المسجد - بالرغم من أنه مجرد بناء يتألف من الأحجار والأخشاب - لكنه عند المؤمنين بمثابة رقيب عتيد يشهد بما للناس من حقوق وبما عليهم من واجبات.

ومن هذا القبيل ما سجله التاريخ من أن أبواب المساجد كانت معروفة للإعلان عن الضائعات والمستحقات، والتشهير بالمخالفات وربما وجدت الملصقات التشهيرية أيضا مكانها على الأبواب متى ما أذن الوالي بذلك.

المسجد كبيت مال المسلمين

إذ تحدثنا عن المسجد كمؤسسة تابعة للدولة، يحسن بنا أن نلتفت قليلا إلى المركز المالي لهذا (المسجد) لنرى أنه كان مصدرا هاما لبيت مال المسلمين الذي تعتمد عليه البلاد في تسييرها، ومن ثمة كان وثيق الصلة بسير دواليب الدولة، فهو أي المسجد، بما يتوفر عليه من أموال كان يتحكم في تلك الإدارة.!!

والحديث عن الجانب المالي للمسجد يقودنا إلى موضوع في غاية الأهمية، ويتعلق الأمر بالموارد النظيفة الطاهرة التي كانت تعتمد عليها المساجد في ضبطها وسيرها، وهذا موضوع يحتاج وحده إلى فصول طويلة وعريضة، وكلها تعبر عن المركز المرموق الذي كان يحظى به المسجد في عالم الإسلام. لقد استغنت المساجد وأثرت حتى نافست مداخيلها أحيانا ميزانية الدولة نفسها بما توفرت عليه من جليل العقار وفسيح الأراضي والبساتين، وحتى أن بعض الدول تضطر أحيانا إلى الالتجاء إلى مال أوقاف المساجد لتسدد به خصاصها وتغطي به عجزها ... ولكثر ما

تعزز جانب المساجد، كان الموسرون من أهل البلاد يضعون في مستودعاتها نفائس أموالهم وثمين حليهم وربما وضعت فيها الدولة عقود البيعة التي تفوض لهذا الأمير أو ذلك ...

وأمامنا مئات السجلات التي توثق أموال أوقاف المسجد في كل جهة من جهات العالم الإسلامي بل إن هذه السجلات أصبحت مصدرا من مصادر الحياة الاجتماعية في تلك الجهات. وإن أروع ما في هذه الأوقاف أن فوائدها يمكن أن تنتقل عبر الأقطار الإسلامية لتستفيد منها المساجد الأخرى المحتاجة، وهكذا سجلنا أن فوائد أوقاف مدينة فاس بالمغرب الأقصى مثلا قد تنتقل إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف، وقد تنتقل إلى المسجد الحرام بمكة المكرمة وإلى مسجد الرسول بالمدينة المنورة ...

وإن أروع ما في هذه الأوقاف أنها تخصص أحيانا لافتداء الأسرى المسلمين، وهكذا يصبح لها دور سياسي يساعد وزارة الشؤون الخارجية على علاج بعض الحالات...

إن الحديث عن الأوقاف كما قلنا يحتاج إلى فصول متنوعة تستوعب جوانبه ونواحيه، ومن هنا لم يكن غريبا علينا أن نجد أن الحكومات الإسلامية رأت من الضروري أن تنشأ إدارة خاصة للإشراف على هذه الموارد حملت في التاريخ اسم (نظارة الأوقاف)، كما حمل المشرف عليها اسم الناظر، الذي كان يستعين على أداء مهمته بأجهزة السلطة لضبط السير المالي.

ومن المهم أن ننبه إلى أن هذه الوظيفة السامية لا يتقلدها إلا رجال يحظون بصفات خاصة: أبرزها الكفاءة والتحلي بالنزاهة والصدق ونظافة اليد.

عناصر المسجد

بعد الحديث عن وظائف وخصائص المسجد، يلزمنا الحديث عن العناصر الأساسية التي يتوقف عليها المسجد كمسجد كما يسلمنا إلى الحديث عن أنواع الأثاث الضروري لهذه المؤسسة.

لقد كان في صدر ما يهتم به أمير المؤمنين ضمان تنمية المسجد وضمان تطوره وتوسيعه على مدى السنين كمؤسسة اجتماعية أساسية في الدولة، ومن هنا وقع التفكير في تزويد المسجد بما تقوم به وظيفته من أجهزة وأثاث ورجال.

المئذنة

هنا سنقوم بالحديث عنها من خلال طريقة بنائها، وما هي نسبة طولها من عرض قاعدتها؟ وكيف يكون شكل قبتها؟ وماذا عن "جامورها" وما عدد "التفافيح" التي تنتظم في الجامور؟

الطريف في هذا الموضوع أن الحديث عنها يختلف ما بين المشرق والمغرب، وهكذا فإذا كان المشارقة اعتمدوا – تحت تأثيرات خاصة، في مناراتهم – على التصميم التركي الدائري الرشيق، فإن المغرب الأقصى ظل معتمدا – في بناء صوامعه – على التصميم المربع، وهو التصميم الذي استوحاه المغرب من شكل الكعبة المشرفة التي كان

المسلمون يرفعون الآذان عندها، وعلى وفق هذا جرى بناء مئذنة جامع القرويين التي تعتبر أقدم منارة، من نوعها، صمدت في العالم الإسلامي كله.

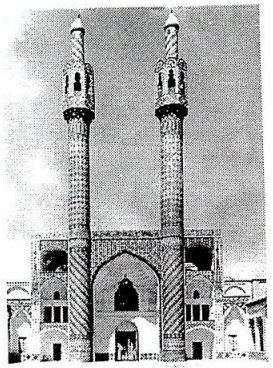

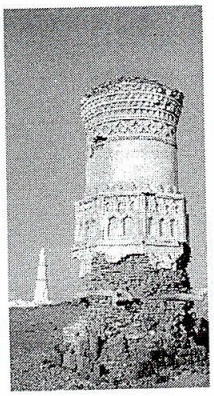

نموذجي لمئذنة مساجد الشرق.

منارتي مسجد ماهان، كرمان. منارة مسجد المخا، اليمن.

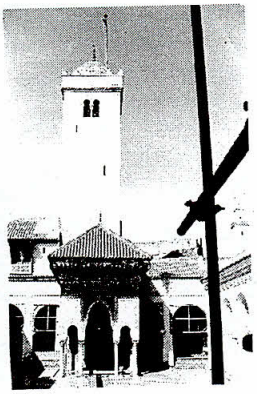

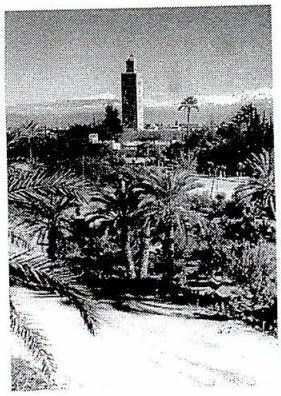

نموذجي لمئذنة مساجد الغرب.

منارة مسجد القرويين، فاس. منارة جامع الكتبية، مراكش.

أما عن "الجامور" الذي يقصد به القطعة من الحديد التي تتوسط القبة التي تعلو المئذنة، هذا "الجامور" يحتوي عادة في مساجد الغرب الإسلامي – من فاس إلى مراكش إلى إشبيلية إلى المغرب الأوسط والأدنى – يحتوي على عدد من التفافيح الذهبية أو الفضية، تصل تلك التفافيح أحيانا إلى خمسة على نحو ما في جامع القرويين سالف الذكر، وأحيانا إلى أربعة على نحو ما كان في جامع إشبيلية وجامع الكتبية بمدينة مراكش، ولكنها في معظم الأحيان لا تتجاوز الثلاث على نحو ما كان بمسجد قرطبة العظيم.

قاعة الصلاة

وقد كان العنصر الثاني مما يتألف منه المسجد: قاعة الصلاة، ويعني بقاعة الصلاة ذلك الحيز الذي يؤدي فيه المؤمنون صلواتهم، ويكون مغطى، على ما هو معلوم، ويحتوي على ممرات أفقية وعمودية تتميز الأولى باسم البلاطات والثانية باسم الأساكيب.

الصحن

أما الصحن فهو العنصر الثالث، والذي هو عبارة عن ذلك الفناء الذي يحتوي في العادة على الفوارات والسقايات المستعملة للوضوء.

المحراب

أما العنصر الرابع للمسجد هو: المحراب الذي يعين القبلة بالنسبة للمصلين، وغالبا ما يكون موقعه مضبوطا باتجاه الكعبة على أسس تعتمد على الحساب الدقيق الذي يعتمد – بطبيعة الحال – على أعمال مهرة المؤقتين...

وقد وجدنا أن بعض المساجد الإسلامية يزود إلى جانب المحراب المعهود في القاعة المغطاة، بمحراب صيفي ينصب في صدر الصحن، ربما حمل اسم العترة (بفتح النون) التي نعرف عن مدلولها في الكتب الصحاح ...

والحديث عن المحراب يدعو للحديث عن المنبر الذي يعتبر اللسان الناطق للمسجد، بل اللسان الناطق باسم الدولة على ما أشرنا، ومن هنا كانت همم الصناع والفنانين تتبارى في زخرفة عوده الذي يتخذ في الغالب من شجر الأبنوس (زخرفته بالعاج)، وتنقش عليه عادة بعض الآيات التي تنبه المؤمنين إلى ما عليهم أن يتحلوا به من جميل الخصال وطيب الفعال.

وأمامنا نماذج من المنابر الرفيعة التي كان الخلفاء والملوك يجلسون عند أقدامها مستمعين مستنيرين مستبصرين ... هذه المنابر كانت تكون وحدها – لو تجمعت – متحفا إسلاميا رائعا يشهد بمركز المنبر في الحكومة الإسلامية.

المقصورة

ونحن قريبون من المنبر نتحدث عن منشأة قد ينساها بعض الذين يتحدثون عن المسجد، تلك هي (المقصورة)، ويعني بها سياج خشبي يحيط بالمحراب وتخصص للخليفة الذي يؤدي فيها الصلاة صحبة حاشيته بعيدا عن كل ما قد يشوش. لقد كان الحفاظ على أمن الخلفاء يعني الحفاظ على أمن الدولة واستقرارها واستمرارها.

المنصة أو الدكة

نلاحظ أن المسجد يحتوي، في بعض جهاته، على ما يمكن أن يسمى منصة أو دكة، وهي عبارة عن مرتفع خشبي يجلس عليه واعظ أو مقرئ أو مؤذن يرفع الآذان منه.

فرش المسجد

يعتبر **فرش** المسجد من الضروريات الأساسية لإقبال الناس على المسجد، فلكي يشعر المؤمن بالاطمئنان، وهو يغشى المسجد، ينبغي أن يشعر بالراحة وهو يعبد الله، ومن هنا وجدنا أن وزارة الأوقاف تهتم في صدر ما تهتم به بأمر فرش المساجد، وتعهد بالصيانة حتى لا يتعرض المؤمنون لأفاعيل الحر والقر، وفي أغلب الأحيان تفرش تلك المساجد بالحصور، ولكنها في بعض الحالات تتزود بالزرابي الرفيعة على ما وقفنا عليه من خلال وثائق الأوقاف.

إنارة المسجد

هناك عنصر مهم فيما يتصل بتسيير المسجد ويتعلق الأمر بالإنارة والسراج: وخاصة في بعض المناسبات التي تتضاعف فيها الاستعدادات لتقوية الإنارة وتعميمها على سائر أركان المسجد بل ونصبها في الطريق المؤدية إليه. إن هناك ثلاث صلوات تصادف ظروف أوقات الليل، فلكي يضبط المسلمون سير المسجد خصصوا جانبا مهما من ميزانية المسجد للإنارة، ومن هنا وقفنا في حجج الوقف – التي أشرنا إليها سالفا – على الحديث الطويل

العريض المتعلق بتحبيس غابات الزيتون على المساجد، وتخصيص العشرات من معاصر الزيتون للاحتفاظ بنصيب من الزيت لإنارة الطرق المؤدية إلى المسجد.!!

وقد أمكننا من خلال الاهتمام بالإنارة أن نقف على طائفة مهمة من الثريات الرفيعة التي تعطي فكرة عن عبقرية الصناع ومدى تفانيهم في أداء خدمة جيدة للمسجد الذي يأوي إليه المؤمنون. وقد كان في جملة تلك الثريات ما كان في أصله ناقوسا كنائسيا وأدخلت عليه تغييرات فأصبح ثريا على ما سبقت الإشارة إليه ...

ومن العناصر الملازمة للمسجد تهافت المسلمين على تزويده دائما بالروائح الطيبة والعطور المتنوعة، ومن ثمة كثر إهداء مثل هذه المواد للمشرفين على المسجد حتى تظل أركانه وزواياه عطرة الأنفاس.

توفر المياه

نحن نعرف أنه لا صلاة عند المسلم بدون ماء. ومن هنا وجدنا أن تاريخ المسجد في الإسلام يقترن بالكلام الكثير عن الماء وكيف كانت الدولة تبذل جهدها لإيصال الماء إلى المسجد وإلى المراحيض مهما كلف ذلك من ثمن، أحيانا تأتي به وهو على بعد المئات من الأميال وأحيانا تستنبطه من أعماق الأرض، على ما قرأنا في التعليمات التي صدرت من الخليفة الوليد إلى عمر ابن عبد العزيز بشأن مسجد الرسول ﷺ...

وتنشأ الفسقيات والنافورات داخل المسجد حتى لا يجد المسلمون صعوبة في الوصول إلى الماء، وقد أمكننا الوقوف من خلال الوثائق الوقفية على المجهود الكبير الذي يبذله المسلمون حتى لا يشعر المصلين بنقص فيما يتصل بتزويد المسجد بالماء. أغنياؤهم يفيضون بأموالهم، عمالهم يتطوعون بعرق جبينهم، مهندسون يمنحون خبرتهم وعبقريتهم لضمان سير الماء. والملاحظ في هذا أن المشرفين على تزويد المسجد بالماء لا يقتصرون على منبع واحد للماء، لقد كانوا يخافون أن يشح ذلك المنبع في يوم من الأيام فتتعطل أعمال المسجد، وهكذا نجدهم يوصلون الماء إلى المسجد عن طرق مختلفة، يكمل بعضها البعض الآخر، كل ذلك إمعانا في ضمان سير هذه المؤسسة، وغير خاف أن مثل هذه الأعمال يتطلب كفاءة كبرى لتحضير نوع القنوات الخاصة التي تقاوم عادية الزمن وإعداد الأدوات الخاصة بأنباط المياه.

أجهزة التكييف

إن الحديث عن الماء يذكرنا باختراعات حضارية كان أسلافنا يفكرون فيها لتوفير الراحة للمصلين والعابدين، ويتعلق الأمر بأجهزة التكييف التي تلطف الجو إبان البرد أو إبان الحر. وهكذا رأينا أن بعض المساجد الكبرى في مدينة بولي مثلا كانت تزود بالمساخن التي يتسرب دخانها عبر القنوات على ما يحكيه الرحالة ابن بطوطة. كما قرأنا، ونحن نؤرخ لجامعة فاس ببلاد المغرب الأقصى طريقة طريفة لتكييف الهواء في صحن الجامع تحاكي نفس الطريقة التي كان المشارقة يستعملونها مما تحدث به مهيار الديلمي في رأيته عن (الطنبلنب) الذي كان بعض الخواص يستعملونه من نسيج فيه فتحة ينفذ منها الهواء، مستعينين بحبال يجذبونها بها فيلطف أذى الحر ...

أجهزة ضبط مواقيت الصلاة

لا نغفل في هذه العجالة عن عنصر من العناصر الضرورية للمسجد، والذي يتعلق بالأجهزة التي تضبط أوقات الصلاة بالليل والنهار، وفي هذا الصدد وجدنا أن بعض المساجد الكبرى تحتوي على عدد من الساعات التي سمعنا عن اختراعها في العصر الوسيط، وهكذا وجدنا تشكيلة من الساعات المائية التي كان يعتمدها المؤقتون والمعدلون لرصد الأوقات آناء الليل وأطراف النهار... تلك الساعات التي ما تزال بقايا بعضها شاخصا إلى اليوم في بعض المساجد الكبرى، ونقصد مسجد القرويين بفاس ...

ولقد تبارى الملوك والخلفاء على أن يزودوا المسجد في هذا الصدد بكل ما يقدرون عليه من اسطرلابات ورمليات وساعات شمسية، كانوا يرون في ذلك منافسة لما يظهر في المعابد الأخرى من آثار ومبتكرات...

موظفي المسجد

إذ تحدثنا عن عناصر المسجد، وعن ذلك الأثاث الضروري للمسجد، فإننا ننتقل للحديث عن الموظفين الذين يتوقف المسجد على نشاطهم لضمان سيره.

إمام المسجد

أول هؤلاء الموظفين إمام المسجد الذي يتقاضى تعويضه من الدولة مكافأة على خدماته اليومية، ومن المعلوم أن هذا الإمام يختار من خيرة الناس سلوكا ومعرفة بالأحكام ونطقا سليما يحترم مخارج حروف لغة القرآن.

خطيب الجمعة

يضاف إلى الإمام موظف مهم وهو خطيب الجمعة وهو - كالإمام - موظف تابع للدولة يعمل على إبلاغ وجهة نظرها إلى الجمهور الذي يتصل به أسبوعيا عن طريق المنبر، وكثيرا ما نجد أن الدولة توفر له السكن على مقربة من المسجد، وربما وفرت له ذلك في مشتمل من المشتملات الملتصقة بالمسجد حرصا على أن لا يتخلف عن الوقت المطلوب، وقد يقوم الخطيب بدور الإمام والعكس صحيح.

المؤذن

أما الموظف الثالث فهو المؤذن الذي تعتبر وظيفته في المسجد أساسية بكل معنى الكلمة، فإنه الذي يعلن دخول أوقات الصلاة بالنسبة للمؤمنين، وفي أغلب الأحيان نجد أن الدولة تعمل على تعددهم وتناوبهم ضمانا لحضورهم الدائم.

المؤقت

في بعض البلدان، يتحكم في المؤذنين ويسيرهم المؤقت، وهو الذي يضبط أوقات الصلاة بالطرق العلمية الحسابية وبواسطة بعض الأجهزة التي سبق أن أشرنا إليها والتي تتطور مع الزمان والمكان ...

ومن الملاحظ أن نجد كل هذه الألقاب: الإمام، الخطيب، المؤقت، المؤذن، كلها قد تصبح ألقاب تشريف تطغى على الأسماء الحقيقية للأشخاص. وهكذا نسمع عن أسرة ابن الإمام وأسرة ابن الخطيب، وأسرة ابن الموقت، وأسرة ابن المؤذن.

السدنة

يضاف إلى كل أولئك الموظفين عدد من السدنة والعملة ممن يقومون بكنس المسجد وغسله وتجصيصه ومراقبة مائه. وفي السدنة من كانت مهمته تقتصر على حماية أبواب المسجد فقط من أن يدخلها عابث أو ماجن.

ومن المهم أن نلاحظ هنا أن الدولة تحرص أشد الحرص على أن تعمل باستمرار على تكوين مثل تلك الأطر الضرورية لسير المساجد الإسلامية، فهي تعمل باستمرار على تكوين وتشجيع الأئمة والخطباء والمؤقتين والمؤذنين، لا تجد فرقا بين وظيفتهم في البلاد، ووظيفة بقية الموظفين من الأمناء أو الوكلاء.

المقارنات والمفارقات في تصميم المسجد بين الشرق والغرب

حتى يكون حديثنا عن المسجد شاملا نشير هنا في سطور قليلة لتصميم المسجد الذي يختلف دون شك عن تصميم فندق أو مستوصف، وسيكون لزاما علينا أن نعرف عن التصميم الأساسي للمسجد في الإسلام، ذلك التصميم الذي يحمل اسم "التصميم العربي"، أي التصميم الأصيل الذي لم يخضع - كما سبق أن أشرنا - لتأثيرات خارجية.

وبمناسبة الحديث عن "المقارنات والمفارقات" بين تصميم المسجد في ديار المغرب وديار المشرق قرأنا فصولا ممتعة عما كان ويكون عليه الحال في معظم البلاد العربية مما يمكن أن تغنينا عنه الإشارة وتقربنا إليه الصورة.

إضافة إلى هذا نقرأ فصولا عن بلاد إسلامية أخرى، مثلا عن التقاليد الإيرانية في بناء المسجد، وسيكون علينا أن نعرف عن الفترة الأولى التي ظهر فيها المسجد متأثرا بالتصميم العربي، ثم لم نلبث أن نجد أنفسنا أمام فترة السلاجقة بما عرفته من نشاط في إنشاء المساجد ثم فترة الإيلخانيين وفترة التيموريين.

وتتميما لكل هذا نقرأ عن التقليد التركي فيما يتصل بالمسجد على ما أشرنا إليه آنفا. وهنا نجد المتخصصين في الهندسة المعمارية للمسجد يفرقون بين ثلاثة فترات: الفترة القديمة التي تميزت بظهور مساجد تحتوي على قبة، والفترة الثانية التي هي الفترة التي برز فيها ما يمكن أن يسمى بالمعمار العثماني، وكانت هذه قبل سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م أي قبل أن يتم افتتاح القسطنطينية من قبل السلطان محمد الثاني المعروف بالفاتح. أما الفترة

الثالثة فهي التي تبتدئ من الفتح العثماني للقسطنطينية، وتتميز في نظر المتخصصين بتطور كبير لهيكل المسجد وشكله سواء في الداخل أو الخارج.

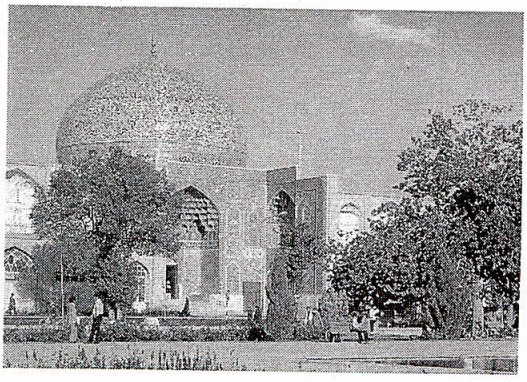

نموذج لمسجد من الشرق، مسجد في إيران.

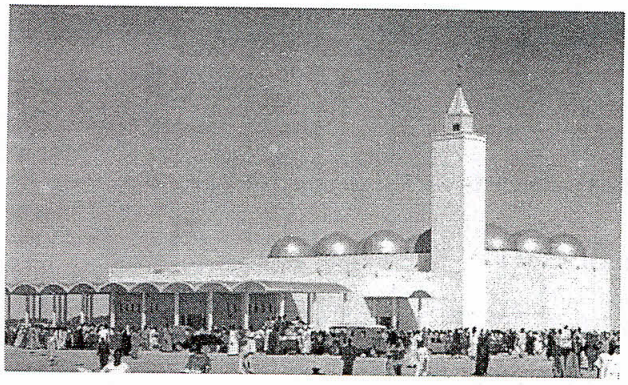

نموذج لمسجد من الغرب، مسجد في موريتانيا.

وإذا انتقلنا إلى المسجد في القارة الهندية، فسيكون علينا أن نشير أولا إلى النموذج الذي يطبع المسجد حسب الجهة التي يشيد فيها. وهنا نقف أمام لائحة طويلة من المعالم المشيدة هنا أو هناك على مر العصور. ابتداء من ظهور الإسلام ببلاد السند إلى حديث الهروي وابن بطوطة وغيرهما عن مساجد الهند.

و لم يغب الحديث حول المسجد عن ذاكرة الذين أرخوا لجزر المالديف ولجزر جاوه وبقية جنوب شرق آسيا، والصين في عدد من مدنه ابتداء من مسجد كانطون وهو يعتبر من أقدم المساجد في الصين إن لم يكن أولها...

وقد اهتم الباحثون كذلك بتصميم المساجد أيضا في القارة الإفريقية والذي كان يختلف تصميمها طبعا عن التصاميم التي عرفتها بلاد المشرق.

الخاتمة

وبعد، فإن المسجد في التراث الإسلامي سواء أكنا في الحرمين الشريفين أو بيت المقدس، أو في آسيا أو الغرب الإسلامي بما فيه الأندلس وبلاد المغرب، فالمسجد هو في وظيفته الدينية ووظيفته الاجتماعية ووظيفته العلمية والتثقيفية ووظيفته السياسية، وهو هو المسجد سواء أكان على هذا التصميم أو ذاك فيما يقوم عليه من عناصر ضرورية لسيره من محراب ومنبر وإنارة وتجهيز بالماء. وما يقوم عليه من أئمة وخطباء ومؤقتين ومؤذنين وسدنة.

وكما قلنا، في البداية فإن المسجد يظل الهوية الأساسية التي تميزت بها بلاد الإسلام عن غيرها من البلاد، ومن ثمة كانت أمنية المؤمن، كل مؤمن، أن يتمكن من الإسهام من قريب أو بعيد في تشييد بيت لله يقصده عباد الله. ومن ثمة أيضا شاهدنا ونشاهد – لحسن الحظ – أن عمارة المساجد والتنافس على توسيعها وتأثيثها يظل الهاجس الأول لكل المستنيرين من القادة الذين آمنوا بأن عليهم ومن واجبهم أو يؤدوا هذه الرسالة راضية بها قلوبهم وضمائرهم فربطوا حاضر هذه الأمة بماضيها.

Mosque Architecture between East and West

Abdulhadi Al-Tazi
Royal Moroc Academy and Arabic Language Societies
Rabat, Morroco

Abstract: Throughout history, mosques always preserved their entities. Mosques were not merely places of worshipping, but also places of making history for the Nation of Islam politically and otherwise. Therefore, mosques were always the center of attention for people interested in Islam. All that lead Muslims to compete building them everywhere.
History witnessed the Muslim kings and leaders have found in constructing mosques a mean of thanking GOD. Many documents and books were written about small as well as big mosques worldwide. Mosques were also the hearts, which is the indicative of how healthy the faiths are of those who build them.